

التغبير بالإصلاح في المنهج السلفي

بحث مقدم لمؤتمر السلفية في منتدى العلاقات الدولية بقطر
بين يومي ١٨-١٩ / ٢ / ١٤٣٥ هـ

إعداد

د. محمد بن إبراهيم السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجه إلى يوم الدين وبعد:

المنهج السلفي في التغيير بالإصلاح وحاجة الأمة إليه في حل أزمتها:

مقدمة:

السلفية ليست ديناً ولا مذهباً عقدياً أو مذهباً فقهياً، هكذا هي كما أفهمها وكما يفهمها أكثر المنتسبين إليها، ولذلك يحبون أن يُضيفوها إلى كلمة منهج، عند الانتساب أو عند المباحثة، فيقولون: منهج السلف، والمنهج السلفي، وذلك حذراً منهم من أن تلتبس بالمذاهب فيظن أنها مذهب آخر أو طريقة في الدين محدثة، كما يُروّج لذلك بعض خصومها.

ولهذا المعنى عيّنه كره بعض أعيان الآخذين بهذا المنهج النسبة إلى السلف أو السلفية خشية اتخاذها علماً بديلاً عن السنة والجماعة أو أن تتخذ سنداً لدعوى افتراقهم عن السنة والجماعة.

فمدلول السلفية مطابق لمدلول السنة والجماعة، فهما شئ واحد لا زيادة لأحدهما على الآخر في أصل الدلالة، وإنما احتيج إلى وصف السلفية لِمَا كَثُرَ الانحراف عن منهج أهل السنة وبقاء المنحرفين على الانتساب إليه حتى بلغ إنه لِيَتَنَسَبَ إِلَى السُّنَّةِ غُلَاةَ الحوليين والاتحاديين ممن لا يتفقون في مذاهبهم مع كتاب ولا سنة صحيحة ولا قول صاحب أو إمام معتبر.

من هنا جاء هذا الانتساب إلى السلفية ليُشير إلى الفرق بين من ينتمي إلى السنة وهو يفارقها في أصولها أو بعضها، ومن يلتزم بها في كل أصولها.

ولأن السلف من الصحابة رضي الله عنهم وتابعيهم وأئمة الإسلام في القرون الثلاثة الذين اجتمعت الأمة على تعديلهم والأخذ بأقوالهم، أقول لأن هؤلاء هم أركى الناس وأبعدهم عن تهمة الانحراف عن الكتاب والسنة وقع الاختيار عليهم ليكونوا محل هذا الانتساب.

ولهذا فإن منهج السلف الصحيح هو الإسلام كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فهمه عنه صحابته رضي الله عنهم، والسلفية الحقة هي الإسلام الحق وتحمل كل صفاته وخصائصه، لأنها تُمَثِّلُ الطريقة الصحيحة لاستنباط الأحكام من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فالسلفية بهذا الاعتبار تأخذ جميع خصائص الإسلام عقيدة وفقهاً، فالعقيدة ثابتة وقطعية وغير قابلة للزيادة أو النقص، والفقهاء محدد المصادر منضبط الأصول قابل للاختلاف وفق الضوابط المحددة في علمي أصول الفقه وأصول الحديث.

كما تأخذ السلفية فكراً وعملاً بنظرة الإسلام للكون والحياة، ومن هذه النظرة تحدد مكان تعاليم الإسلام من هذا الكون وهذه الحياة.

نعم ليس كل مسلمٍ سلفياً لأن الحقيقة المشاهدة تقول إنه ليس كل المسلمين يأخذون الإسلام كما جاء به الرسول وكما فهمه الصحابة وتابعوهم، بل إن من المسلمين من يخالفون الصحابة في بعض

مصادر التلقي، ومنهم من يخالفونهم في طرق الاستنباط، ومنهم من يخالفونهم في مجمل الاعتقاد ومنهم من يخالفونهم في تفاصيله.

أما الاختلاف في الظنيات من مسائل الفقه فهذا مما يحتمله المنهج السلفي كثيراً. بل أزعم أن الأصل في المنهج السلفي كونه أرحب الاتجاهات الإسلامية بالخلاف من هذا القبيل، إذ إن علماء أكثر الناس دعوة إلى الدليل وتنفيراً لمن له أهلية النظر من التقليد.

مُكُونَاتِ الرُّوْيَةِ السَّلْفِيَةِ لِلتَّغْيِيرِ:

وحيث نتحدث عن المنهج السلفي في التغيير فإننا من هذا المنطلق سوف نرجع إلى التأسيس الذي أوجزته آناً، وعليه السلفيون قاطبة في

أ- النظرة للكون والحياة

ب - مجمل الاعتقاد

ج - مصادر التلقي وطرق الاستنباط

فهذه الأمور كلها ولاشك، لا أقول إنها مؤثرة في المنهج السلفي في التغيير، بل هي مُكُونَةٌ لهذا المنهج، إذ النظرة السلفية للتغيير ليست نظرة قشورية تنتج من مصلحة قائمة أو حاجة ملحة أو ردة فعل غير محسوبة أو ضغط حضاري مهيمن، بل هي نظرة لها مكوناتها الفكرية وإن شئت سمّاه الفيلسفي الذي ينبعث من فهم صائب قطعاً لكل الأسئلة التي يتشاجر عليها فلاسفة الدنيا منذ أن وُجِدَت الفلسفة حول الكون وصانعه وغايته والغاية منه ومبدئه ومنتهاه، ومحل الإنسان في هذا الكون وقدره فيه وعلاقته بكل أجزائه.

وهي نظرة لها مصدرها الإلهي الذي فصل أسباب التَّغْيِيرِ وطرق التغيير، ومصدرها النبوي الذي أكمل البيان بأقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله التي أحدثت أعظم تغيير إصلاحى شهدته البشرية منذ وُجِدَتْ، ولها أنموذجها التطبيقي الذي نجح كلياً وجزئياً، مما يؤهله ليكون مفسراً للنصين الإلهي والنبوي على حدٍ سواء.

وأتحدث بإيجاز عن مُكَوِّنَاتِ الرؤية السلفية للتغيير والإصلاح:

أولاً: النظرة السلفية للكون والحياة.

النظرة الإسلامية الحقَّة للكون والحياة ذات مسالك وشعب كثيرة، وليس من الصواب طرؤها كلها في هذه العجالة، لكننا نتحدث عمَّا هو أَلْصَقُ بموضوعنا وهو التغيير بالإصلاح.

هذا الكون الذي نعيش فيه ونعرف القليل عنه هو بكل تفاصيله، أرضنا وما عليها وما يحيط بها من كواكب وشموس وأحياء مُسَخَّرٌ للإنسان، وهذا الأمر متقرَّرٌ في عدد من آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) ٣٢-٣٣ سورة إبراهيم، وقال سبحانه: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ١٢ النحل، وقال عز وجل (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الجاثية ١٣.

والآيات القرآنية في تسخير الكون وما فيه للإنسان كثيرة قررت هذه الحقيقة إجمالاً في مواضع وتفصيلاً في مواضع آخر.

وهذا التسخير منه مالا يُدرك الإنسان كيفيته كتسخير الكواكب والنجوم البعيدة، والكائنات المتوارية في أعماق المحيطات والأحياء الدقيقة التي كان الإنسان إلى أمد قريب يجهل حقيقة وجودها، وكذلك المخلوقات الضارة كالحوانات المفترسة والزواحف السامة والجراثيم القاتلة.

ومنها ما يُدرك الإنسان كيفية تسخيرها كالدواب والفلك التي تجري في البحر، ومنها ما لا يُدرك الإنسان إلا شيئاً يسيراً من كيفية تسخيرها له، كالشمس والقمر وبعض النجوم والبحار والمحيطات والغازات المحيطة بالأرض. وكلما تقدم الإنسان في اكتشاف الكون المحيط به انكشفت له بعض آيات الله تعالى في هذا التسخير العجيب (سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ٥٣ فصلت.

وهذا التسخير من الله لسائر الموجودات للإنسان مرتبط بتقديرات دقيقة محكمة، فإذا اختل شئ منها ظهر بقدر ذلك الاختلال فساد في الحياة: (لِلَّهِ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) ٨ الرعد، (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) ٤٨ القمر، وجاءت آيات خاصة تثبت التقدير في الأرزاق والمياه خاصة: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) الحجر ٢١، (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) الشورى ٢٧.

ومن الحكم وراء هذا التسخير للإنسان وهذا التقدير الدقيق تهيئة هذه الأرض لتكون لثلاثة أمور هي:

__ ابتلاء الإنسان.

_ الاستعباد لله تعالى.

_ عمارة الإنسان للأرض.

ونتحدث أولاً عن الابتلاء: فقد خلق الإنسان في هذه الأرض ليبتلى. والابتلاء جاء في القرآن لغايات مختلفة اقتضتها حكمة الله عز وجل، منها التمحيص ومنها الاستدراج ومنها العقوبة ومنها الاختبار.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (الأنعام ١٦٥).

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ٧ هود.

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) ٢٠ الفرقان.

(وَنَبَلُّوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) ٣٥ الأنبياء.

ويتكرر وضع قضية الابتلاء نصب عيني المتدبر في كثير من المواضع في القرآن الكريم، فلا يكاد تخلوا من ذكره تلك الآيات التي تتحدث عن الأمم السابقة ودعوة أنبيائهم لهم، أو الآيات التي تتحدث عما يلُمُّ بالأفراد أو بالأمم من كوارث، سواء أكانت طبيعية أم من بأس الإنسان بالإنسان.

وتُصرِّح الآيات كثيراً بأن جناية الإنسان على نفسه وهدم استعباده لله عز وجل أحد الأسباب فيما يحل به من كوارث (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ

كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَدَّاقَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) النحل ١١٢ .

كما تصرح الآيات بأن الاستعباد لله عز وجل أحد أسباب ما تنعم به الأمم من رخاء: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ٩٦ الأعراف. (١)

والناظر في الأرض وما يحيط بها من مُسَخَّرَاتِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لهذا الإنسان يجد أنها مهيأة تماما لتحقيق الابتلاء الذي قدره الله تعالى كمحرك لتاريخ الإنسان وتقلبات أحواله.

أما الحكمة الثانية من ذلك التسخير والتقدير، فهي: أن تكون هذه الأرض مهيأة لاستعباد الإنسان لله فيها، فبنوا آدم عبيدٌ لله اضطراراً لا فضل لهم في ذلك على سائر مخلوقات الله تعالى في هذه الأرض ولا في غيرها: (إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا) مريم ٩٣ وهذه العبودية الاضطرارية تقتضي وجود ما يجعل الانقياد لها ظاهراً في جوانح الإنسان وعلى جوارحه، من خضوع وخوف ورجاء، وما يقتضيه الوجود أو العدم لهذه الأوصاف من إصلاح في النفس وفي الأرض وبين الناس أو عكس ذلك، وحين نتأمل كل ما في الأرض من تقدير وما يجري عليها من أقدار نزداد يقيناً بأن هذا الاستعباد الاضطراري لله عز وجل مُراد في كل خلق على هذه الأرض وما يُحيط بها، وهذا الاستعباد هو الحق الظاهر الدامغ وما سواه الباطل الزاهق وقد عنته الآيات في قوله سبحانه وتعالى: مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ

الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) ٦١-٨١ سورة الأنبياء (٢) قال أبو حيان الأندلسي: (مَا أَنْشَأَ هَذَا الْعَالَمَ الْعُلُويَّ الْمُخْتَوِيَّ عَلَى عَجَائِبِ مِنْ صُنْعِهِ وَغَرَائِبِ مِنْ فِعْلِهِ، وَهَذَا الْعَالَمَ السُّفْلِيَّ وَمَا أودَعَ فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْهَوَاءِ وَالسَّحَابِ وَالرِّيَّاحِ عَلَى سَبِيلِ اللَّعِبِ بَلْ لِفَوَائِدِ دِينِيَّةٍ تَقْضِي بِسَعَادَةِ الْأَبْدِ أَوْ بِشَقَاوَتِهِ، وَدُنْيَاوِيَّةٍ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى) (٣).

أما ما يختص به الإنسان من بين سائر الكائنات على هذه الأرض فهو العبادة الاختيارية، أي: أن يكون الإنسان عبداً لله اختياراً، وهذه خصيصة لا يشارك الإنسان فيها سوى الجان، ومفهوم العبادة الاختيارية الذي يطرحه الإسلام كما يُعبر عنه أكثر علماء المدرسة السلفية تأثيراً في عصرنا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) (٤).

وهذا المعنى الكبير للعبادة يجعلها صادقة على كل ما توجه العبد به لله عز وجل مما يُحبه الله تعالى، وبذلك لا تدخل فيه الشرائع من الواجبات والمستحبات، بل يدخل فيه كل إصلاح في هذه الأرض شريطة أن لا يتعارض مع أمر الله ونهيه، لأنه إن عارضهما لم يعد إصلاحاً.

والأرض بما سُخِّرَ فيها للإنسان من مخلوقات أفضل ما تكون ميداناً لتسابق الناس في هذا مجال الاستعباد لله عز وجل أو تماديهم في الإعراض عنه.

والأرض بما فيها مُسَخَّرَةٌ أيضاً لإثابة الأمم التي تختار منهج الله تعالى، ومسخرة أيضاً لعقوبة الأمم التي تُعرض عن منهج الله تعالى، وكذلك مسخرة لما قَدَّره الله تعالى من استدراج الأمم

المُعْرِضَةِ حَتَّى يَحِقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ، وَابْتِلَاءَ الْغَافِلَةِ حَتَّى يَتِمَّ تَمْحِصُهَا
وَرَجوعَهَا لِكَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

الحكمة الثالثة من حِكْمِ التَّسْخِيرِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّقْدِيرِ فِي هَذِهِ
الْأَرْضِ: هُوَ عِمَارَةُ الْإِنْسَانِ لَهَا، وَهَذِهِ الْخَصِيصَةُ يَنْفَرِدُ بِهَا
الْإِنْسَانُ فَلَا يُشَارِكُهُ فِيهَا حَتَّى الْجَانُّ الَّذِينَ يَشْتَرِكُونَ مَعَهُ فِي عِبَادَةِ
اللَّهِ تَعَالَى اضْطِرَارًا وَاخْتِيَارًا.

وَقَدْ جَاءَ النَّصُّ عَلَى هَذِهِ الْحِكْمَةِ فِيمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ
صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَوْعِظَتِهِ قَوْمَهُ: (وَإِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا
قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ
مُجِيبٌ) ٦١ هود.

وَجَاءَ الْأَمْرُ بِعِمَارَةِ الْأَرْضِ فِي سِيَاقِ الْإِمْتِنَانِ بِتَذَلُّلِهَا لِلْإِنْسَانِ
وَحِثِّهِ عَلَى الْمَشْيِ فِي مَنَاكِبِهَا وَاسْتِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
فِيهَا (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا
مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (١٥) الملك.

وَجَاءَ فِي سِيَاقِ بَيَانِ عِلَّةِ نَسْخِ إِجَابِ قِيَامِ اللَّيْلِ (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ
مِنْكُمْ مَرَضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) مِنَ الْآيَةِ (٢٠) المزمّل.

وَالَّذِينَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ هُمُ التَّجَارُ الَّذِينَ يَجْلِبُونَ الْأَرْزَاقَ
مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: (سِوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيْنَ
دَرَجَةِ الْمُجَاهِدِينَ وَالْمُكْتَسِبِينَ الْمَالَ الْحَلَالَ لِلنَّفَقَةِ عَلَى نَفْسِهِ
وَعِيَالِهِ) (٥)

فعمارة الأرض أعم من البناء عليها، بل تشمل رزاعتها والمتاجرة في أرزاقها واستخراج كنوزها، وصناعة ما ينفع الناس فيها.

النظرة للحياة:

وحياة الإنسان في هذه الأرض بالرغم من كل ما سُخِّر له فيها، إنما هي عاجلة فانية قصيرة جداً، ومنحُ الله إياها للإنسان وإعطائه فيها القدرة على الاختيار والتمييز إنما كان للاختبار كي يفوز بالحياة الطيبة الخالدة إن أحسن الاختيار والعمل ويُلقَى حياة الشقاء إن أساء الاختيار والعمل، فهي دار ممر وليست دار مقر، ولهذا وصف الله القرآن الحياة على هذه الأرض بأنها الدنيا، ولم يرد ذكرها في القرآن إلا متبوعة بالتزهد فيها والتقليل من شأنها، ولم يرد ذكرها مُعظمة بل ولا ممدوحة أبداً، ولا يُعظَّم شأنها ويُعلي من قدرها سوى من لا يعرف حقيقتها ولا يُعدُّ لما بعدها: (زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (٢١٢) البقرة.

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (٣٢) الأنعام.

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) (٤٥) الكهف.

إذاً فمكانة الحياة الدنيا إنما تأخذها بالمقدار الذي ينجح فيه الإنسان في السلوك إلى الآخرة من خلالها، وكُل ما في هذه الحياة من مُسَخَّرات لا تُساعد الإنسان في هذا الاختبار الخطير لا قيمة لها: (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِبُيُوتِهِمْ سُفُفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا
وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِنُونَ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٣-٣٥ الزخرف).

وهذه النظرة للحياة الدنيا لا تتناقض أبداً مع الحكمة التي عَدَدْنَا
قبل قليل ثالثة من حكم خلق الإنسان في هذه الأرض وهي
عمارتها، وذلك لأن عمارة الأرض بما يُصْلِحُها على وفق أمر الله
تعالى واجتناب نهيه وصف مستقر من أوصاف العبادة، وسوف
يأتي الحديث عنه مستقلاً.

ثانياً: مُجمل الاعتقاد.

هذا هو المُكَوِّن الثاني من مكونات النظرة السلفية للتغيير، وحين
نقول مُجمل الاعتقاد فنعني به ما تحصل به معرفة العبد للدين،
وبجهله أو جهل بعضه يكون جاهلاً بحقيقة الدين، وكل ذلك يُسميه
البعض أصول الدين.

وطريقة السلف في مجمل اعتقادهم أيسر الطرق وأكملها،
وأصفاها وأبعدها من التكلف وأقدرها على مواءمة جميع العقول
على اختلافها وأسرعها في مخالطة حشاشات القلوب والتأثير فيها.

ولا غرو فليس فيها زيادة عمّا جاء به الرسول صلى الله عليه
وسلم وأمره الله بتبليغه للأبيض والأحمر.

ولهذه الخصال التي يتميز بها اعتقاد السلف لم يكن الإصلاح
الصحيح الذي تنتهي إليه الآمال ليكون إلا إن انطلق من معتقدتهم
وتكون على أساس رؤيتهم.

ولما لم يكن المجال مغرضاً لسرد اعتقادهم أكتفي بأشد مسأله مساساً بالتغيير والإصلاح، وأولها: الإيمان فهو عندهم قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ويتفاوت الناس فيه، لا خلاف بين السلف في ذلك (٦).

وقد ربط القرآن الكريم بين الإيمان والعمل وبين التغيير والإصلاح في عدد من المواضع في كتاب الله تعالى، منها قوله عز وجل: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) الأعراف ٩٦.

وقوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) ٥٥١ النور.

وثاني المسائل العقديّة: توحيد الإلهية: و هو أفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تعالى كائنا من كان، كما قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣] وقال تعالى: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦] وقال تعالى: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤] وغير ذلك من الآيات، وهذا قد وفت به شهادة أن لا إله إلا الله (٧).

وتأتي علاقته بالإصلاح أيضاً من كون الله تعالى رتب وعده بالتمكين والإصلاح عليه، كما في الآية السابقة من سورة النور (لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) وكما في قوله تعالى: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي

لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٢-٣ هود).

قال في تفسير المنار: (فَالْقَاعِدَةُ الْمُقَرَّرَةُ فِي الْقُرْآنِ: أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ وَدِينَ الْحَقِّ سَبَبٌ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنِعْمَتِهَا بِالْحَقِّ وَالِاسْتِحْقَاقِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ يُشَارِكُونَهُمْ فِي الْمَادِيِّ مِنْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) فَذَلِكَ الْفَتْحُ ابْتِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ لِحَالِهِمْ، كَانَ أَثَرُهُ فِيهِمْ فَرَحَ الْبَطْرِ وَالْأَشْرَ بَدَلًا مِنَ الشُّكْرِ، وَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ الْعِقَابُ الْإِلَهِيُّ فَكَانَ نِقْمَةً لَا نِعْمَةً، وَفِتْنَةً لَا بَرَكَةً) (٨).

وثالث المسائل الاعتقادية: توحيد الربوبية، وهو الإقرار الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره والمتصرف فيه (٩) وهذا النوع من التوحيد من أعظم ما يكون أثراً على الإنسان لأن من يؤمن بوحداية الله تعالى في تصرفه وتدبيره لهذا الكون لم يعبد الله تعالى إلا بما شرع، ولم يبتغ الإصلاح في الأرض إلا بما يوافق شريعة الله تعالى من فعل ما أمر به واجتناب ما نهى، ومن كان هذا نهجه فهو أبعد ما يكون عن الإفساد في الأرض، لأن من لا تُسَيِّرُهُ هذه الحقيقة سواءً أكان فرداً أم أمة، فإنه بلاشك سوف يتيه في البحث عن الصواب في مناهج الإصلاح، فإن اختار منها ما يبعد عن مُراد الله في خلقه فإنه بلاشك واقع في الإفساد في الأرض شاء أم أبى، وهذا يُفسر ما تنغمس فيه البشرية من مظاهر الفساد والإفساد بالرغم مما هي عليه من التمدن، الأمر الذي يُجَلِّي للناس التمايز الكبير بين الإصلاح والمدنية.

فقد نعمت أمم كثيرة بالمدينة على مدى التاريخ لكن حظها من الإصلاح كان قليلاً وذلك لبغيها عن المنهج الحق وغياب أثر توحيد الربوبية في أعمالها.

فالمدينة التي كان يعيشها الثموديون لم تكن إصلاحاً كما نص على ذلك القرآن الكريم: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَنتَرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)) سورة الشعراء.

ورابع المسائل الاعتقادية، الإيمان بالقضاء والقدر، فالسلف على أن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدره وإرادته، وبذلك كلفه الله تعالى بالعمل، وجزاه عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر (وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) التوبة ١٠٥، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) الزلزلة ٧-٨.

وكل ما يفعله العبد وما يشاؤه وما يقدر عليه، لا يخرج عن مشيئة الله تعالى وقدرته وإرادته (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) ٣٠-٣١ الإنسان.

وكل ذلك مما تضمنه علمه سبحانه وتعالى، وعلمه وكتبه: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ) النحل ١٢٥ .

فكل ما يعمله العبد في حياته هو مما أمكنه الله عز وجل من
فعله بخلق القدرة على الفعل والاختيار فيه، وهو مما علمه
سبحانه وقدره، فالتقدير لا يعني الجبر، وإنما هو مقتضى العلم،
وكل ذلك شهدت له آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة
الصريحة. (١٠).

وخلق الله سبحانه وتعالى سنناً كونية، يجب مراعاتها في
مشاريع الإنسان للإصلاح، ومنها:

- أثر أعمال البشر في ما يصيبهم أفراداً وجماعات من
مصائب وكوارث وخسائر: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا
كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى ٣٠، (أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ
مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) آل عمران ١٦٥ .

- أن ما يقسمه للأمم من نعيم دنيوي دائر بين الابتلاء
والاستدراج والإملاء (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ
لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ
يَسْأَلْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن ١٥-١٧ (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ
فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا
أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ فَإِذَا هُمْ مَبْلُؤُونَ) الأنعام ٤٤ (وَلَا يَحْسَبَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَّا نُمَلِّي لَهُمْ
لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) آل عمران ١٧٨ .

- وما يقسمه سبحانه من مصائب وكوارث ونكبات دائر أيضاً
بين الابتلاء والتمحيص والعقوبة: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) البقرة ١٥٥-١٥٦ (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ
لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا
فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ) من الآية ١٥٤ آل عمران , (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً
كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ) النحل ١١٢

فكل إرادة أو عمل يُبتغى به الإصلاح ولا يُعتبر فيه بالموقف
الصحيح من القضاء والقدر وهذه السنن الكونية لا يمكن أن يكون
إصلاحاً صحيحاً أبداً, وكل جانب صالح يظهر في نتائجه فلا بد أن
ينبتق عنه فساد أعظم منه والله أعلم.

ثالثاً: مصادر التلقي وطرق الاستنباط.

مصادر التلقي وطرق الاستنباط في المنهج السلفي إحدى مكونات
ذلك المنهج في التغيير بالإصلاح، فمصدرية كتاب الله تعالى
للشريعة مُسلمة قد لا يختلف فيها السلفيون مع غيرهم، أما
مصدرية السنة فهي موضع خلاف بين أتباع مدرسة السلف وعدد
من المدارس المنتسبة إلى الإسلام، ولن أذكر آراء هذه المدارس
هنا، لكنني أحب أن أشير إلى أنها لا تتفق فيما بينها على رؤية
واحدة، فمن منكرين لحجية السنة أصلاً، وآخرين مشككين في
صحة النقل جملة وتفصيلاً ، وفئة ثالثة اعترفت بالسنة وبصحة
النقل لها في الجملة كما هو مذهب السلف في التمييز بين الصحيح

وغير الصحيح، لكنهم مع ذلك لا يرون كل السنة حجة بل جعلوا القسم الأكبر منها لا حجة فيها لأنه ليس تشريعاً (١١).

والحق الذي عليه سلف الأمة، بل وجماهير خلفها من أهل السنة: أن كل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هي للتشريع، قولاً كانت أم فعلاً أم تقريراً، ولا تخرج إفادتها عن الأحكام الخمسة التي أجمع العلماء عليها، وهي الإيجاب والاستحباب والكرهية والتحريم والإباحة (١٢).

يدخل في ذلك أفعاله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت جبليّة أم عرفية أم غير ذلك، وجميع ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، في جانب العبادات أم المعاملات أم فيما يتعلق بأمور الدنيا وسياسة الناس وما ورد عنه من أحاديث في الطب، وغيرها، والخاصة أن سيرته صلى الله عليه وسلم بكل تفاصيلها تشريع، وذلك لقوله تعالى (مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) ٣-٥ النجم وكذلك عموم الآيات الأمرة بالاتباع، والآيات المبينة لمكانة سنة النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) آل عمران ٣١ وقوله سبحانه (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) النحل ٤٤.

وأيضاً فهذا هو المعروف من شأن الصحابة رضي الله عنهم، فلم يكونوا يفرقون بين أقواله أو أفعاله صلى الله عليه وسلم، بل كان كلها شرع متبع (١٣).

أما عن علاقة تقسيم السنة بما نحن بصدده من الإصلاح، فيظهر من كون الإصلاح لا يتم إلا وفق سنته صلى الله عليه وسلم، ومن استبعد شيئاً من السنة فإنما استبعد فريقاً لا غنى عنه من قواعد الإصلاح والمرشادات إليه.

كمن استبعدوا بعض الحدود والعقوبات الشرعية بحجة كونها مصلحية أو تاريخية ولسنا ملزمين فيها بالتشريع، أو من استبعد بعض أحكام المعاملات المالية بحجة أن السنة فيها ليست ملزمة، أو استبعد بعض الأخلاق والآداب بحجة أن الرسول إنما فعلها استجابة للعرف ليس أكثر، فهذا المنهج الذي يصل بالمسلم إلى أن يجعل العمل بالسنة تشهياً وليس شرعاً ملزماً لا يصل به المسلمون إلى الإصلاح أبداً، بل هو منهج نحو تحريف الدين وإبعاده عن الحياة اليومية العامة والخاصة.

ويدخل في الحديث عن مصادر التلقي: طريق التلقي وهم الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، والذين لا تثبت السنة إلا مع القول بأمانتهم عليها وعدالتهم في روايتها، وهم أول من طبقها وفسرها وأقاموها في النفوس والأمصار.

أما طرق الاستنباط، فهي أخذ أحكام الشريعة من مصدرها الأصليين الكتاب والسنة باستخدام قواعد الاستنباط المقررة في علم أصول الفقه، وتلك القواعد الأصولية- وأخص ما تعلق منها بالاستنباط – مستفادة من استقراء أفهام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ووفق أفهامهم، والصحابة رضي الله عنهم هم خيرة العرب عدالة وفصاحة وذكاء وفهما لذلك كان تتبع طريقتهم في فهم نصوص الشريعة واستخراج القواعد المنظمة لفهم النصوص من خلالها، هو المنهج الصحيح الذي وفق الله تعالى الأمة إليه ليحفظ لها دينها الذي هو عصمة أمرها.

أما قواعد أصول الفقه التي لا تتعلق مباشرة بالاستنباط من النص، وهي التي تتضمنها مباحث الإجماع والقياس، والاستصحاب والاستصلاح والاستحسان، وقول الصحابي، فهي قواعد تثبت لدى من يعتبرها من الأئمة بنصوص الوحيين، وهي تدل على أن عملية إصدار الأحكام في الشريعة الإسلامية ليست مبنية على أسس علمية شكلت بناء قوياً لحفظ الشريعة الإسلامية منذ عصور نشأتها.

ووجه علاقة طرق الاستنباط بالإصلاح: أننا حين نُقرر أن طريق الإصلاح هو المنهج الذي اختطه لنا الكتاب والسنة، فلا بد أن يكون لدينا منهج علمي محدد لاستنطاق الكتاب والسنة عن مكنوناتهما واستشراف المستقبل من خلالهما ومعالجة الأخطاء من خلال اتباع أمرهما ونهيهما.

وهنا نكون انتهينا من إيجاز المكونات للرؤية السلفية للإصلاح.

الرؤية السلفية للإصلاح:

الإصلاح مهمة الأنبياء والرسل ومقصد الشرفاء في كل زمان ومكان ، وادعائها لأناس بعينهم ذوي سمة مخصوصة أو اتجاه بعينه من أظهر معالم الجهل والاغترار أو سوء المقصد عند من يقول به ، فلا يوجد شريف النفس على وجه الأرض منذ أن أوجد الله الإنسان عليها إلا وهو داع إلى الإصلاح فيها.

لا أستثني من ذلك مؤمنا أو كافرا ، فكلهم يبتغي الإصلاح وإن أخطأه ، وإنما أستثني وضعاء النفوس ممن يحكم تصرفاتهم كبرهم وعنادهم أو يغلبهم حبهم لأنفسهم فلا يرون في خلق الله إلا منافسين لهم على ما أوجد الله في هذه الأرض من متاع الحياة الدنيا.

هذا من حيث المقصد ، أما إصابة الغاية وسلوك المنهج القويم إليها فليست إلا للأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم.

وكل سبيل غير سبيلهم في ابتغاء الإصلاح مآله إلى الإفساد التام وإن أظهر في مرحلة من مراحلها شيئا أو أشياء من معالم الإصلاح

الديبوي الذي ربما اغتر به من اقتصر نظره عليه أو ركنت نفسه إليه.

دعونا نقت قليلاً مع مصاديق ذلك في كتاب الله عز وجل ،
فهاهو يحكي عن شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم
(إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) هود ٨٨ ويخبر تعالى أن الإصلاح دعوة الرسل (يا
بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) الأعراف ٣٥ .

وهو وصية موسى لأخيه هارون ، رسولان يوصي أحدهما
الآخر (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا
تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) من الآية ١٤٢ الأعراف .

هذا عن الرسل أما أتباعهم فمن الإخبار عن حالهم في الإصلاح
قوله عز وجل (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ
آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) الأنعام ٤٨ .

أما كون الكافرين والمنافقين يريدون الإصلاح ويخطئونه
لابتعادهم في ذلك عن منهاج الرسل ، فمن أدلة ذلك قول الله عز
وجل (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) البقرة ١١-١٢ .

إذاً فقصد الإصلاح غاية لا تنفك عن النفس الإنسانية بصرف
النظر عن دينها وانتمائها الفكري أو السياسي سوى من استثنينا أنفاً
، ذلك أن قصد الإصلاح مقترنٌ بوحدة من المعارف الضرورية
لديه وهي كونه مُستعمراً في هذه الأرض فطراً (هو أنشأكم من
الأرض واستعمركم فيها) من الآية ٦١ هود، وأن ما تنتهي إليه
جهوده فيها آيلٌ لا محالة لوارثه ، لهذا تجده حريصاً على الإصلاح

قلقاً من المستقبل ، متوجساً من التغيير ، ثقيل الخُطوة إليه إلا ما يكون ممن قدمت استثناءهم من قصد الإصلاح في بداية القول ، فهؤلاء يجدون في الكبر وحب الذات والغرور ما يحول بين أذهانهم وبين القلق من القادم والتوجس من التغيير ويجعل خطاهم سريعة إلى ما يحقق أهواءهم دون اعتبار لأمر آخر.

من هم المفسدون في الأرض؟

والمفسدون في الأرض صنفان:

أولهما: من يسعى إلى الإفساد عنوة وقصدًا ، ويكونون أفراداً وأممًا.

ومما ذكره القرآن مثلاً للأفراد: قوله سبحانه: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا..) من الآية ٣٣ المائدة، ومثلهم كافة المجرمين من السراق والقتلة والخونة وغيرهم.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى (مِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ) ٢٠٤-٢٠٥ البقرة.

ومثله: كل من يتحدث بما يعزُّ الناس فيه ثم يخالفهم قاصداً بذلك إفساد أرضهم ومقدراتها وذرياتهم.

روى الطبري في تفسيره: عن أبي معشر نجيح (قال: سمعت سعيدا المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي ، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: إن لله عبادا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من

الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترون الدنيا بالدين. قال الله تعالى: علي تجترئون ! وبي تغترون !. وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران.

فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله.

فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله ؟

قال: قول الله: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) الآية.

فقال سعيد: قد عرفتُ فيمن أنزلت هذه الآية.

فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل ، ثم تكون عامة بعدُ) (١٤)

قال ابن كثير: (وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح) (١٥) ونقل الطبري عن قتادة في قوله تعالى (وهو ألد الخصام): (وإذا شئت رأيت عالم اللسان جاهل العمل ، يتكلم بالحكمة ، ويعمل بالخطيئة) (١٦) .

وتجد في الحياة نماذج كثيرة من هؤلاء المفسدين يغتر الناس بألسنتهم وهياتهم ، وحقيقة أمرهم إفساد الدنيا والدين.

ومن هؤلاء شياطين الإنس الذين أمرنا الله بالاستعاذة منهم في سورة الناس.

وبين سبحانه بعض علاماتهم في كتابه الحكيم ، ومنها: الجدل بغير علم ، والاستكبار على أهل الحق والخير: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (٨ - ١٠ الحج .

ما تقدم حديث عمّن يسعى في الأرض فساداً عنوةً وقصدًا من الأفراد.

ومما ذكره القرآن مثالا للأمم ، قوله سبحانه واصفاً اليهود: **وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** المائدة ٦٤ .
ومثلهم كلُّ أمةٍ تجعلُ طريقها لبناء نفسها عبر تحطيم الآخرين وإذلالهم وتضييق حياتهم بل والسير على جثثهم إن استطاعوا .
وفي التاريخ والعصر الحاضر نماذج كثيرة جداً لهذه الأمم.

الصنف الآخر: من يفسدون لا عنوةً ولا قصداً .

وهؤلاء فئات شتى لكن الذي نرى الوقوف عنده: من يريد الإصلاح لكن باتباع غير سبيل الله تعالى الذي به أمر، ولهذا جاء في وصية موسى لأخيه هارون عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم **(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)** ١٤٢ الأعراف، وهو تذكير من موسى لأمر الله تعالى لهما **(قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** ٨٩ يونس.

قال ابن عاشور في تفسيره لآية الأعراف: **(فَإِنَّ سِيَّاسَةَ الْأُمَّةِ تَدُورُ حَوْلَ مَحْوَرِ الْإِصْلَاحِ، وَهُوَ جَعْلُ الشَّيْءِ صَالِحًا، فَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِ الْأُمَّةِ وَأَحْوَالِهَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ صَالِحَةً، وَذَلِكَ بِأَنْ تَكُونَ الْأَعْمَالُ عَائِدَةً بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحُ لِفَاعِلِهَا وَلِغَيْرِهِ، فَإِنَّ عَادَتَ بِالصَّلَاحِ عَلَيْهِ وَبِضِدِّهِ عَلَى غَيْرِهِ لَمْ تُعْتَبَرْ صَالِحًا، وَلَا تَلْبَثُ أَنْ تَتَوَلَّ فَسَادًا عَلَى مَنْ لَاحَتْ عِنْدَهُ صَالِحًا، ثُمَّ إِذَا تَرَدَّدَ فِعْلٌ بَيْنَ كَوْنِهِ خَيْرًا مِنْ جِهَةٍ وَشَرًّا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَجَبَ اعْتِبَارُ أَقْوَى**

حَالَتِيهِ فَأَعْتَبِرْ بِهَا إِنْ تَعَدَّرَ الْعُدُولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ أَوْفَرُ
صَلَاحًا، وَإِنْ اسْتَوَى جِهَتَاهُ الْغِيَّ إِنْ أَمَكْنَ الْغَاوُهُ وَإِلَّا تَخَيَّرْ، وَهَذَا
أَمْرٌ لِهَارُونَ جَامِعٌ لِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ مِنْ أَعْمَالِهِ فِي سِيَاسَةِ
الْأُمَّةِ (١٧).

فابن عاشور رحمه الله تعالى يؤكد على أن المقصود بالإصلاح
هنا شامل للإصلاح في جانب إدارة الأمة وسياستها ولا يقتصر
على الإصلاح في الحكم بين الناس أو الإصلاح في جانبه العبادي.
كما يؤكد ابن عاشور رحمه الله تعالى على تنبيه الآية لقضيتين
مهمتين:

الأولى: أن المنهي عنه ليس الفساد وحسب، بل كل ما يؤدي
إلى الفساد ولذلك عبرت الآية بالسبيل وهو الطريق.

الثانية: أن المفسد قد يدعو إلى ما يظن فيه الخير فلا ينبغي
سلوك طريق المفسد حتى لو أظهر لنا أداؤه للخير، لأن الإصلاح
سبيل المفسد إنما هو تغرير وليس حقيقياً.

قال رحمه الله: (وَالِاتِّبَاعُ أَصْلُهُ الْمَشْيُ عَلَى حُفِّ مَاشٍ، وَهُوَ
هُنَا مُسْتَعَارٌ لِلْمُشَارَكَةِ فِي عَمَلِ الْمُفْسِدِ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ مُسْتَعَارٌ
لِلْعَمَلِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِ مَنْ كَانَ الْفَسَادُ صِفَتَهُ، فَلَمَّا
تَعَلَّقَ النَّهْيُ بِسُلُوكِ طَرِيقِ الْمُفْسِدِينَ كَانَ تَحْذِيرًا مِنْ كُلِّ مَا
يُسْتَرْوَحُ مِنْهُ مَالٌ إِلَى فَسَادٍ، لِأَنَّ الْمُفْسِدِينَ قَدْ يَعْمَلُونَ عَمَلًا لَا
فَسَادَ فِيهِ، فَنَهَى عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي عَمَلٍ مَنْ عُرِفَ بِالْفَسَادِ، لِأَنَّ
صُدُورَهُ عَنِ الْمَعْرُوفِ بِالْفَسَادِ، كَافٍ فِي تَوَقُّعِ إِفْسَادِهِ إِلَى فَسَادٍ.
فَفِي هَذَا النَّهْيِ سَدُّ ذَرِيعَةِ الْفَسَادِ، وَسَدُّ ذَرَائِعِ الْفَسَادِ مِنْ أُصُولِ
الْإِسْلَامِ، وَقَدْ عُنِيَ بِهَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَكَرَّرَهَا فِي كِتَابِهِ وَاشْتَهَرَتْ
هَذِهِ الْقَاعِدَةُ فِي أُصُولِ مَذْهَبِهِ.

فَلَا جَرَمَ أَنْ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ جَامِعًا
لِلنَّهْيِ عَنْ ثَلَاثِ مَرَاتِبٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِفْضَاءِ إِلَى الْفَسَادِ وَهُوَ الْعَمَلُ
الْمَعْرُوفُ بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى الْمُفْسِدِ، وَعَمَلُ الْمُفْسِدِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا
اعْتَادَهُ، وَتَجَنُّبُ الْإِقْتِرَابِ مِنَ الْمُفْسِدِ وَمُخَالَطَتِهِ (١٨).

والنظرة القرآنية إلى الإصلاح تعني معالجة كل فساد يطرأ على
هذه الأرض ولا تقتصر فيه على جانب محدد من جوانب الحياة،
فهو يدخل في الجانب الاجتماعي، كما في قوله تعالى (وَالْمُطَلَّاتُ
يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ
فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتْهُنَّ أَحَقُّ
بِرِدَّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا) ٢٢٨ البقرة.

والجانب السياسي، وقد ورد النص بخصوص النزاع العسكري
بين مكونات المجتمع المسلم، (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا
فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي
حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) الحجرات ٩.

وجانب درء المفاصد التي قد تمس وحدة المجتمع المسلم
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا
ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الأنفال ١.
وفي جانب حفظ الدين علماً وعملاً: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) الأعراف ١٧٠.
وفي جانب عمارة الأرض بما يصلحها وتقدمت الإشارة إلى
الآيات الواردة في ذلك.

والشاهد من كل ذلك: أن النظرة القرآنية للإصلاح ليست شاملة
لخيري الدنيا والآخرة في النفس والمجتمع والمكان والزمان
وحسب، بل نظرة تجعل الإصلاح في جميع هذه الجوانب وحدة
غير منفصل بعضها عن بعض.

معنى ذلك أن الإفساد في جانب الديانة مثلاً يترتب عليه الفساد في جوانب الحياة الأخرى من عمارة واستقرار وصحة أبدان وغير ذلك.

وكذلك الفساد في عمارة الأرض أو الغلبة فيها يترتب عليه فساد في الديانة والمال والأخلاق.

فمن الأول قوله عز وجل (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ٤١ الروم.

ومن الثاني قوله تعالى: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) ١١٦-١١٧ هود.

التغيير بالإصلاح والإصلاح بالتغيير:

المراد بالتغيير هنا: معناه المُعْجَمِي وهو الانتقال من حالة إلى أخرى، قال في لسان العرب: (وتَغَيَّرَ الشَّيْءُ عَنْ حَالِهِ تَحَوُّلٌ وَغَيْرَهُ حَوَّلَهُ وَبَدَّلَهُ كَأَنَّهُ جَعَلَهُ غَيْرَ مَا كَانَ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ قَالَ تَعَلَّبَ مَعْنَاهُ حَتَّى يَبَدِّلُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ) (١٩).

وبهذا المعنى فالتغيير من الحال السييء إلى الحال الحسن مطلب جميع المصلحين في أممهم والذين يجعلون همهم نقل أحوالها من السوء إلى الحسن ومن الضعة إلى العلو ومن الضعف إلى القوة، ومن يسبر مسالك هؤلاء للوصول إلى ما يصبون ويضحون من أجله لتحقيق هذا الانتقال نجد أنه يمكننا جمعها في حالين:

الأولى: معالجة الوضع القائم بشتى الطرق وهم يختلفون في أساليب المعالجة لكنهم مع ذلك يتفقون على أن اجتناب الوضع

القائم والنهوض عليه ليس طريقاً لإصلاحه، وهؤلاء من من يُمكن أن نختصرهم بدعاة التغيير بالإصلاح، ويُقابلهم من يرون أن محاولات الإصلاح من داخل البنية الفاسدة لا يمكن أن تحقق نتيجة ملموسة وهي جهدٌ كبير في غير محله يضيع فيها من السنوات والأعمار ما لا يُمكن أن يكون مُشجعاً على سلوك هذا المسلك لا سيما حين نرى الفساد يزداد استشرافاً وتمكناً مع زيادة هذه السنوات التي أهدرت في محاولات إصلاحه. لذا فهم يرون أنه إذا سنحت الفرصة للتغيير الذي يتم عن طريق اجتثاث الفساد من جذوره فعند ذلك تصبح الساحة جاهزة لبناء واقع جديد كما يُريده المصلحون، فسيكون ذلك هو الطريق الأمثل للإصلاح. وهذا المنهج هو ما يُمكن أن نختصره بمنهج الإصلاح بالتغيير.

ولما كان البحث مقتصرأً على بيان المنهج السلفي في التغيير بالإصلاح، فسوف أقتصر فيما يلي على بيان معالم الإصلاح لدى المنتسبين لهذا المنهج دون مناقشة المنهج الآخر.

معالم الإصلاح في المنهج السلفي:

التغيير كما تقدم يبدأ بالإصلاح، وحين يسير الإصلاح على الطريق الصحيح الذي أمر الله تعالى به فالتغيير متحقق لا محالة. ويبدأ ذلك بإصلاح عقائد الناس وتعبيدهم لله تعالى ونشر الإيمان بينهم.

وكل مشروع لا يبدأ بهذه القضية فليس إصلاحاً حقيقياً أو لنقل شرعياً تاماً وإنما هو علاجٌ مؤقت والفساد حاله ومآله، وكل مشروع على وفق هذا المنهج فمآله إلى تغيير أحوال الأمة من كل جوانب السوء فيها أو من معظمها إلى كل جوانب الخير أو

معظمها، وحين لا تُحمى هذه الحال الجديدة الناتجة عن الإصلاح بما يحفظها وهو الاستبقاء على أسباب وجودها فإنها تتبدل إلى الحال الفاسدة شيئاً فشيئاً.

وأدلة هذه القضايا متوافرة في كتاب الله تعالى ومنها قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) ٥٥النور.

وهذا الوعد للرسول صلى الله عليه وسلم وللأمة عامة كما نص عليه الطبري رحمه الله تعالى (٢٠).

وتتضمن الآية ثلاثة من المطالب التي لا يختلف عليها أحد والتي تدور عليها جميع مطالبات المصلحين وهي:

الاستخلاف في الأرض: وهو لا يقتصر على الحكم فيها، بل يتجاوزه إلى التمكين من مقدراتها وخيراتها بما يصلح أحوال البلاد والعباد، ولهذا جاء في الآية الأخرى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) ٩٦، الأعراف.

قال ابن عطية: (فتح البركات إنزالها على الناس ومنه قوله تعالى: مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ [فاطر: ٢] ومنه قالت الصوفية: الفتوح والبركات النمو والزيادات، ومن السماء لجهة المطر والرياح والشمس، ومن الأرض لجهة الإنبات والحفظ لما ينبت، هذا هو الذي يدركه نظر البشر والله خدام غير ذلك لا يحصى عددهم، وما في علم الله أكثر) (٢١).

المطلب الثاني: التمكين للدين الذي ارتضاه الله تعالى، وهو الإسلام (٢٢) وذلك بجعل الشريعة هي المهيمنة على الناس (٢٣).

المطلب الثالث: الأمن من بعد الخوف، وذلك أن الحياة لا تقوم معانيها الكاملة من عبادة و عمران للكون وإصلاح فيه إلا بالأمن.

قال ابن عاشور: (فِي الْوَعْدِ بِالِاسْتِخْلَافِ وَالتَّمْكِينِ وَتَبْدِيلِ الْخَوْفِ أَمْنًا إِيْمَاءً إِلَى التَّهَيُّؤِ لِتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ مَعَ ضَمَانِ التَّوْفِيقِ لَهُمْ وَالنَّجَاحِ إِنْ هُمْ أَخَذُوا فِي ذَلِكَ، وَأَنَّ مَلَكَ ذَلِكَ هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا، وَإِذَا حَلَّ الْإِهْتِدَاءُ فِي النُّفُوسِ نَشَأَتِ الصَّالِحَاتُ فَأَقْبَلَتْ مُسَبِّبَاتُهَا تَنْهَالُ عَلَى الْأُمَّةِ، فَأَلْسِنَاتُهَا هِيَ الْإِيْمَانُ وَعَمَلُ الصَّالِحَاتِ)(٢٤).

وبعد أن تستقيم الأمة على ما أمرها الله تعالى ويتحقق لها وعده عز وجل يمكن أن يضعف التزامها بأمر الله تعالى نتيجة الترف وغيره من مزالق معصية الله تعالى فيرجع عليهم الابتلاء والفساد في الأنفس والأحوال، وفي ذلك جاء حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه كما في صحيح البخاري: (مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ)(٢٥).

ومن هنا أي من منطلق هذا الحديث تأتي الخطوة الأخرى وهي خطوة مصاحبة للإصلاح العقدي، وهو الإصلاح التربوي، وذلك أن أي أمة لا يمكن أن تتمكن ما لم تكن مؤهلة تربوياً لحمل أمانة هذا التمكين، ولذلك فإن محاولات الإصلاح الواردة على مجتمعات غير مؤهلة أخلاقياً وتربوياً لتحمل هذه الأمانة تُجهض مباشرة من قبل أفراد تلك الأمة،

ولعله لهذا الأمر كان للأمر بحسن الخلق مكان كبير جداً في الأوامر الإلهية والنبوية، وقد يعجب الكثيرون من وفرة هذه

الأوامر في التشريع بل وتعظيم الثواب الأخروي عليها، وذلك إذا ما قورنت بما يتعلق بما يُعرف اليوم بالشأن العام أو الشأن السياسي، وزوال هذا العجب في تقديري يأتي حين نُصنّف التربية الأخلاقية على أنها لا تخرج أيضا عن المشروع السياسي للأمة.

فالأمة المُتخلّقة بالفضائل هي الأمة الأشد وعياً، وذلك أن النفس المتعلقة بالفضائل هي نفس واعية صادقة صابرة قابلة لتحمل عبء حماية منجزات الأمة، بعكس الأمة المبتعدة عن الفضائل، فإنها أمة لا يُمكن أن تؤثر فيها مشاريع الإصلاح العليا، بل إن أي مشاريع عليا للإصلاح ما لم تكن الأمة متخلقة بما يؤهلها للمحافظة والترحيب والحماية لهذا الإصلاح، أقول: إن أي مشاريع من هذا النوع قد تنجح في الوجود لكنها لا تنجح في الاستمرار، وسبب فشل استمرارها غالباً ما يكون من القاعدة وليس من الأعلى.

والسبب في ذلك هو أن الأمة غير المُتخلّقة بالفضائل عاجزة عن الصبر على ما يقتضية مشروع الإصلاح الأعلى من جراحات قد تمس مصالحها القريبة واهتماماتها القشورية، أو انفلاتها وتحررها من العديد من القيود التي لا يقيد بها الوضع الفاسد.

ولا يخفى أن الله سبحانه أخبرنا على لسان رسوله أن حسن الخلق يبلغ به العبد درجة الصائم القائم (٢٦) وأن الاحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أحسن الناس أخلاقاً (٢٧) والآيات والأحاديث في ذلك تغني شهرتها عن سردها.

ثم خطوة الإصلاح العلمي وتهيئة أفراد الأمة علمياً لأعباء التمكين، فسيادة العلم في أفراد الأمة يحقق بينهم القدرة على إنهاضها ويرفع مستوى الوعي بواقعها ومستقبلها، ويضعف سيادة

الاستبداد عليها وسطوته على قلوبها وضمائرهما، وللأمر نفسه جاءت عناية الكتاب والسنة بالعلم، في أول أمر إلهي وُجِّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي قسم إلهي عظيم بالقلم والكتب التي يُسَطِّرُها العلماء (ن والقلم وما يسطرون).

إن الأمة التي يضع مُصلحوها نصب أعينهم هذه الغايات الثلاث قبل كل شئ هي الأمة التي تسود سياسياً وأمنياً وعسكرياً وتجارياً وصناعياً.

وأعني بهذه الثلاثة الأهداف

١- الإصلاح العقدي والعبادي.

٢- الإصلاح التربوي الأخلاقي.

٣- الإصلاح العلمي.

وماذا عن الإصلاح السياسي؟

الإصلاح السياسي قضية مهمة في الإسلام، لكن وضعها في موضعها الصحيح أمر مهم.

فمن جهة كانت كلمة الحق أمام سلاطين الجور هي أفضل الجهاد كما في سنن أبي داود: (عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر) (٢٨).

وجعلت الشريعة النصيحة فرضاً لأئمة المسلمين وعامتهم، بل لخص الحديث النبوي الدين بالنصيحة: (عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم») (٢٩).

كما تدخل النصيحة والاحتساب على الحكام والولاة في جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي شغل حيزاً مُلفتاً من أوامر الشرع، لكنه جاء عاماً لم يكن للجانب السياسي فيه كبير خصوصية.

ومع هذه القوة في شرع النصيحة للولاة والتي يُمكن أن تأخذ مع تغير الزمان والحال أشكالاً عدة وطُرُقاً مختلفة, ويُمكن الخلاف في آلياتها بحسب الاجتهادات الفقهية، أقول مع ذلك فلم يأخذ الإصلاح السياسي حيزاً عريضاً في التشريع الإسلامي كما أخذه الإصلاح العقدي والتربوي والعلمي.

والسبب في ذلك كما يظهر لي: يرجع إلى أمرين:

الأول: تقدمت الإشارة إليه وهو أن الإصلاح في الشريعة كلٌّ غير متقسم، فالإصلاح العقدي والتربوي والعلمي هو في النتيجة إصلاح سياسي، باعتبار العاقبة الحتمية التي أكدت عليها الآية ٥٥ من سورة النور والتي تقدم الحديث عنها.

الأخر: أن الانشغال المباشر من قبل المعنيين بالإصلاح بالإصلاح السياسي، سيؤدي حتماً إلى زهول الأمة بشبابها وعلماءها ومربوها عن الإصلاح في الجوانب المتقدمة, وهذا أمرٌ مجرب تاريخياً وواقعاً، والبرهنة عليه لا تحتاج سوى لقراءة في تاريخ العمل السياسي منذ نهاية العصر الراشد وحتى يومنا هذا، لتجد أن هذه المحاولات تكلف الأمة دائماً أكثر مما تفيدها.

لذلك كان التوجه للإصلاح السياسي المباشر مع القادة مُقدَّراً بقدره، ويشترط فيه شرطان:

الأول: العلم: والمقصود به أن يكون المتصدي للإصلاح في قضية ما عالماً أشد ما يكون العلم بجوانب الفساد في الأمر الذي

يريد إصلاحه، ويدل على ذلك عموم قوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) ٣٦ الإسراء.

لأن تصدي من لا يعلمون حقائق الأمور في قضايا الإصلاح السياسي مآلها الحتمي إلى الإفساد، وقد يكون الإفساد من جهة تصدي من لا يعلمون لمثل هذا الجانب شديد الحساسية أشد ضرراً على مجموع الأمة من الفساد القائم.

وليس المراد بالعلم تميز المتصدي للإصلاح بالعلم في الجملة أو كما يُقال تميزه بثقافة عالية، بل المراد اختصاصه في الجانب الذي يُعالجه، والذي به يستطيع معرفة أوليات ما يمكن أن يتوجه إليه الإصلاح، فإن تبعثر الأمور والجهل بالأولى منها أن يبدأ به في كثير من القضايا يجر إلى مفاصد عظيمة وخلافات ونزاعات في المجتمع جسيمة.

الثاني: العدل، والمقصود به في هذا المقام: عدم تجاوز الحد في تقدير مظاهر الفساد، والأصل فيه قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة: ٨)، وكذلك قوله تعالى: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) من الآية ١٥٢ الأنعام.

وتجاوز الحد في تقدير مظاهر الفساد ليس قياماً لله تعالى بل قياماً بحظ النفس، ويمكن أن يُقال: إن من علامة ابتغاء النفوس جهة حظوظها عدم عدلها وشهادتها بالقسط في تقدير مظاهر الفساد.

ومن تحقق فيه هذان الشرطان، أو لنقل من حقق هذين الشرطين في نفسه صح له ممارسة الإصلاح السياسي بكل طريق لا يؤمن فيه أداؤه إلى ما هو أشد ضرراً من الفساد القائم.

وأعني بالضرر الأشد خاصة ما يعني جانب مباشرة التغيير، أي هدم واجتثاث الوضع القائم واعتبار هذا الاجتثاث هو الطريق الأمثل للإصلاح.

الإصلاح وطاعة ولاة الأمور:

ليس من المستحسن في مقامي هذا - في تصوري فقط - أن أقوم بسرد الأحاديث الصحيحة الواردة في الأمر بطاعة الأمراء في غير معصية ما اقاموا الصلاة، أو ما لم تروا كفراً بواحاً، وأقوال المحدثين الثقة في مختلف العصور في تصحيحها، وكذلك لن أسترسل في ذكر أقوال الثقة الصلحاء من كبار أهل العلم في الصبر على ولاة الجور، وذلك لأنني أعلم أنها كلها أصبحت من الشيوع بحيث لا تنكر.

لكنني سوف أقف عند إشكالية ما يقال عن تقديس الحكام لدى المنتسبين للمنهج السلفي من خلال كثرة روايتهم لمثل هذه الأحاديث والآثار.

وأبدأ أولاً بالإقرار بأن هناك من المنتسبين للمنهج السلفي من أغرق في الاستناد إلى هذه الأحاديث حتى في تحريم النصيحة العلنية وللولاة ولو كانت بشرطها اللذين قدمتهما قبل قليل، وهما العلم والعدل، وأضاف إلى هذين الشرطين شرطاً ثالثاً وهو

السرية، مستنديين في ذلك إلى أحاديث وآثار منها ما هو صحيح ومنها ما ليس كذلك، ومن أشهر ما يذكرونه في الاستدلال لذلك ما رواه ابن أبي عاصم في السنة عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ، قَالَ: قَالَ عِيَاضُ بْنُ غَنَمٍ لِهَشَامِ بْنِ حَكِيمٍ: أَلَمْ تَسْمَعْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِدِي سُلْطَانٍ فَلَا يُبْدِهِ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيَخْلُوا بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فِدَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَى الَّذِي عَلَيْهِ» (٣٠).

ووجه مبالغتهم يظهر في كونهم اعتقدوا أن هذا الخبر وأمثاله قاطع في تحريم نصيحة العن، وقاطع في تحريمها على كل حال وفي كل زمان ومكان، والحق أن الخبر وما كان مثله يمكن أن يُجمع بينه وبين الآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم في نصيحة العن بتنزيل النهي على أوقات وأحوال، وما ورد عن الصحابة على أوقات وأحوال، دون أن يُلجأ إلى إظهار التعارض بينها.

كما تظهر مبالغتهم في كونهم جعلوا المخالفة في هذا الأمر تتجاوز المخالفة الفقهية إلى وصفها بالمخالفة العقديّة.

نعم أُقِرُّ بأن من المنتسبين لمنهج السلف من هم كذلك، لكن مثل هذا الشطط في تقديري لا يخلو منه أتباع أي منهج من المناهج ولا ينبغي مصادرة المنهج بكليته من أجل الخلاف في جزئية وإن كانت مهمة مع بعض المنتسبين إليه.

وبعد هذا الإقرار، أقول إننا لا ينبغي أن نفهم من الأمر بطاعة الأمراء إقرار للاستبداد أو ترسيخ لقيم الظلم والاستدلال والتبعية، لأننا إن قلنا ذلك فنحن على اضطرار أن نقول إن رسول الله صلى

الله عليه وسلم إنما دعى من خلال الأحاديث الكثيرة الواردة في الأمر بالطاعة في غير معصية والصبر على الأمر إلى الذل والاستكانة ودعم الظلم والاستبداد، وهذا اللازم محال.

أو أن نضطر إلى إنكار ورود هذه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونتكلف لإنكارها دعوى مخالفتها لمبادئ الشريعة أو مقاصدها العامة والخاصة، مصادرین بذلك جهود أئمة النقل العظام الذين درسوا السنة رواية ودراية وحكموا بصحة ورود هذه الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما أن تكلف رفضها مؤذن بفتح باب من إخضاع النصوص لحاكمية الهوى في القبول والرد.

والصحيح القطع الجازم بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الهداية لقوله تعالى (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) النور ٥٤.

وإذا صحت النصوص فلا تُعرض على الحكم والمقاصد بل المقاصد تستنبط من النصوص، والحكم تؤخذ بالتأمل في مرادات النص ومآلاته.

على أن من تأمل أحاديث طاعة الأمرء مقدماً الاستسلام للنص على الرؤية الخاصة تيقن أن كل ما جاء من ذلك موافق للمقاصد صادر عن الحكم الإلهية الجليلة مناسب لتشريع العدل ورفع الظلم ومغالبته.

ذلك أن هذه الطاعة لا تتضمن الرضى ولا تتضمن التخلي عن الإنكار، لكنها تنظر إلى غالب مآلات الأمور وما ينتج غالباً من نزع اليد من الطاعة من وقوع الأمة فيما هو أضر بحالها مما كانت

عليه، وهذا الغالب منزل منزلة الكلي، وهذا هو مقتضى العقل والحكمة من إعطاء غالب المآلات حكم كلها لا سيما في دفع الشرور والأضرار عن الأمة، خاصة وأن هذه المضار تمس حقاً المقاصد العليا وهي حفظ الضرورات والحاجات والتحسينات، والإخلال بالطاعة في الغالب مؤد إلى عكسها.

ولا تؤدي الطاعة في غير المعصية إلى الذل والمسكنة وتعظيم المستبد إلا في حالين:

الأولى: ذهاب الناس من الطاعة في غير معصية إلى الطاعة في المعصية، وهذا تعدٍ على النص واعتداء عليه، ولا يمكن أن يُحمَل النص أخطاء الناس في مخالفته وإن تلبسوا به لإجراء هذه المخالفة.

الأخرى: ترك وسائل الإصلاح التي تحدثنا عنها في هذه الورقة من تعبيد الناس لله وتربيتهم أخلاقياً وعلمياً للوصول إلى ما وعد الله به من التمكين والاستخلاف.

أما حين تصاحب الطاعة هذه الأعمال فلا شك أن التغيير حاصل بإذن الله تعالى ولكن بقدر نتائج النجاح التي يصل إليها المصلحون في ذلك.

أدلة التغيير بالإصلاح:

يمكن أن نقول إن أدلة منهج التغيير بالإصلاح تتلخص في النص والتطبيق العملي للنص من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده صحابته الكرام وفي موافقة النص لمقاصد الشريعة.

أولاً: النص، وهو الأمر المجمل بطاعة أولي الأمر في كتاب الله تعالى (أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) ٥٩ النساء.

ومن السنة أمثال ما رواه مسلم عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَانْكُرْهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ (٣١).

هذه نماذج على نصوص الإثبات، ويمكن أن نقول إن خلو القرآن والسنة من نصوص تحض على الإصلاح بالتغيير مع وفرة النصوص التي تدل على التغيير بالإصلاح دليل آخر داخل في دلالة النص.

ثانياً: التطبيق العملي والمتمثل بداية في السيرة النبوية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان منهجه التغيير بالإصلاح، يؤكد ذلك سيرته صلى الله عليه وسلم طيلة مقامه بمكة فلم يعمد إلى الإصلاح بالتغيير، وقد كانت فرصة ذلك مهياً له صلى الله عليه وسلم، وكان نصر الله حليفه لو أراد ذلك، لكنه أراد أن يبين للأمة منهجاً في الإصلاح يبقى معها طيلة بقائها.

بل أثر صلى الله عليه وسلم هجرة أصحابه إلى الحبشة على مقاومة الواقع مقاومة تدعو إلى اجتنائه، ثم هاجر هو ومن معه إلى المدينة بعد أن تهيأ له من فرص الدعوة وتكوين الأنموذج الذي يمثل دعوته ودولته هناك.

مقاصد الشريعة:

إذا كان رفع الظلم والنهوض على الاستبداد والسعي إلى الحرية وإقامة العدل مطالب ينبغي أن تسعى إليها الأمم، بل إن السعي إليها من المركز في فطرة الأمم، فإن النظرة الصائبة، هي تقديم السؤال عن الإصلاح بالتغيير هل يحقق هذه المقاصد أم يعطلها، وجواب ذلك ينبغي أن يكون على الغالب الأعم وليس على فرائد ونوادير في التاريخ الإنساني.

الجواب الذي ينبغي أن نعني به هو الحقيقة التي يقدمها لنا التاريخ والواقع المعاصر، وهي أن محاولة الاجتثاث لا تحقق إلا ما هو أسوأ من الوضع الذي كانت النعمة عليه.

وعليه فلا ينبغي للشعوب أن تبدأ دائماً من حيث بدأت الأمم في كل عصر وزمان ومكان بل تبدأ من حيث تنتهي تجارب الأمم.

تيقن القدرة على اجتثاث الواقع:

هنا ينطلق سؤال، وهو: ما لصنيع لو تحقق اليقين على القدرة على اجتثاث الواقع وإقامة بناء أكمل منه وأكثر تمثيلاً لتطلعات الشعوب وأقرب إلى متناول تحقيقها، هل نبقى عند قضية التغيير بالإصلاح، أم يحق لنا هنالك الإصلاح بالتغيير؟

الجواب ولا شك أن هذا الاجتثاث إن لم يصاحبه محذور شرعي من استباحة دماء وأموال وأعراض سيكون فعله حسناً، بل نقول إنه حزم وعزم وحسم.

لكن السؤال الأبرز متى نصل إلى اليقين بذلك؟

الواقع أن تيقن ذلك من أصعب ما يمكن، بل قد يبقى بيننا وبين الوصول إلى اليقين توهم اليقين، وذلك بأن يُصور الحماس

والطموح والنقمة على الواقع والرغبة في تغييره، يصور كل ذلك للمتطلعين الوهم باليقين على أنه يقين لا وهم فيه، وهنا تقع الأمة في فخ نصبه لها الطامحون دون قصد، وهم لا يمكن أن يُعذروا في ذلك ولو كان مقصدهم طيباً حسناً.

انتهت إلى هنا هذه الورقة

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

لاشك أن القارئ الكريم سيجد أن الورقة بالرغم من المساحة التي أخذتها لم تستطع أن تجلي الموضوع كما هو حقه، وذلك عائد لأمرين:

أولهما ضعف بضاعة الكاتب من العلم والبيان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الآخر: سعة هذا الموضوع وحاجته إلى عمق أكثر ومناقشة أطول.

لكن الذي يمكن أن نجعله خلاصة للبحث:

أن المنهج السلفي في التغيير مرتبط بشكل كبير لرؤية مستقلة وعميقة للكون والحياة وليس منهجاً مصلحياً مجرداً.

هناك ارتباط وثيق بين السنن الكونية وأفعال العباد على هذه الأرض.

أن منهج التغيير بالإصلاح هو المنهج الذي يتوافق مع النصوص والتطبيق التاريخي في السيرة النبوية.

منهج التغيير بالإصلاح هو المتوافق مع العقل ومقاصد الشريعة واستقراء التجارب التاريخية في الأمم.

الإصلاح كل مرتبط ببعضه غير قابل للتجزئة، والنظرة المجزأة للإصلاح هي السبب في هدمه وعدم فاعليته.

يبدأ الإصلاح من القاعدة وليس من الأعلى وذلك بإصلاح العبادة والتربية والعلم والأخلاق.

صلاح الإنسان في عمارة الكون وما يتعلق بها نتيجة حتمية للإصلاح في جانب الدين والعلم والأخلاق.

كل إصلاح ينظر إلى الأمور المادية العملية بتجرد عن النظرة العبادية والأخلاقية يبقى محتضناً لأسباب انهياره.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد السعيد

(١) هناك عدد من الكتب والرسائل حاول مؤلفوها تتبع فكرة الابتلاء في القرآن الكريم، منها:

(٢) في تفسير الجلالين الحق في هذه الآية: الإيمان، ١: ٤٢١, دار الحديث، القاهرة، ط: ١, وقال القرطبي: أراد بالحق الحجة، ١٨٧/١١ دار الفكر.

(٣) الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف، البحر المحيط، ٤١٥/٧.

(٤) ابن تيمية، تقي الدين، أحمد بن عبد الحلیم، العبودية، ٤٤، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي. ط: السابعة، ١٤٢٦هـ.

(٥) القرطبي. محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ١٩: ٥٢، دار الفكر بيروت.

(٦) ابن تيمية. تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، مجموع الفتاوى، ٧: ٣٠٨، ت عبدالرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، السغودية، ١٤١٦هـ.

(٧) الحكي، حافظ بن أحمد بن علي، أعلام السنة المنشورة
لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، ص: ١٩، وزارة الشؤون
الإسلامية والأوقاف، ط: الثانية: ١٤٢٢ هـ الرياض. تحقيق: حازم
قاضي.

(٨) رضا. محمد رشيد، تفسير المنار، ٩: ٢٣، الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٩) أعلام السنة المنشورة، ص ٢٣، مرجع سابق.

(١٠) راجع في ذلك:

ابن قيم الجوزية، شمس الدين، محمد بن أبي بكر، شفاء العليل
في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت
١٣٩٨هـ.

(١١) راجع هذه المقولات في: السباعي، مصطفى بن حسني،
السنة ومكانتها في التشريع، المكتب الإسلامي ط: الثالثة، ١٤٠٢ هـ
بيروت.

عبد الكريم، د فتحي، السنة تشريع لازم ودائم، مكتبة وهبة، ط: الأولى،
القاهرة، ١٤٠٥هـ.

(١٢) عبدالخالق، عبدالغني، حجية السنة، ٧٨.

(١٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن
رب العالمين،

(١٤) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تفسير أي

القرآن، ج: ٤ / ٢٣٣ دار المعارف.

(١٥) ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل بن كثير، تفسير

القرآن العظيم، (٥٦٣: ١، دار طيبة ١٤٢٢. (١٦)

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تفسير آي القرآن ، ج/ ٤ ، ٢٣٦ .

(١٧) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير ، ٨٧/٩ ، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ . (١٨) المرجع السابق.

(١٩) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب ، ٣٣٢٥/٥، تحقيق: عبدالله الكبير وآخران، دار المعارف.

(٢٠) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تفسير آي القرآن، ج: ١٩ / ٢٠٧ ، دار المعارف.

(٢١) ابن عطية، عبدالحق بن غالب، المحرر الوجيز، ٢: ٤٣١. تحقيق: عبدالسلام عبدالشافى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢٢ .

(٢٢) ابن أبي حاتم، عبدالرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم ، ٢٦٢٨/٨ ، تحقيق / أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار الباز مكة، ١٤١٩هـ.

(٢٣) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير ، ١٨ ، ٢٨١/ ، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ . (٢٤) السابق.

(٢٥) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، حديث ٤٠١٥ ، ١٠٨/٥ ، دار الشعب، مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

(٢٦) رواه أبو داود وغيره ، السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث ، ٢٥٢/٤ ، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا.

(٢٧) رواه البخاري ، ٣٤/٣٧٥٩،٥ ، تقدم قريباً.

(٢٨) سنن أبي داود ، ١٢٤/٤ .

(٢٩) النيسابوري. مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح، رقم ٩٥،
٧٤/١، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

(٣٠) ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو بن الضحاك، السنة
٥٢١/٢، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى
،المكتب الإسلامي بيروت.

(٣١) صحيح مسلم، ١٤٨١/٣.